المورسكيون الهجرة والمعاناة
(بلاد المغرب، فرنسا وأمريكا أنموذجا)

Morcians Emigrate And Suffer
(Morocco, France and America are examples)

طيبي عبد العالي *

الإرسال:	2019/01/26	القبول:	2019/12/05	النشر:	2020/06/30

الملخص باللغة العربية:

تحدث العديد من المؤرخين عن مأساة الموريسكيين في الأندلس منذ سقوط غرناطة حتى طردهم. في حين أنهم لم يكشفوا في دراساتهم عن معاناتهم في البلدان المستقبلة. لقد عرضت في حدود هذه الدراسة لمحة عن معاناتهم في هذه البلدان.

الكلمات المفتاحية: الموركيون- اسبانيا- المعاناة- المغرب.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: Many historians spoke about the tragedy of the moriscos in Andalusia since the fall of Granada till evicting them. while they did not expose, in their studies of the issue, their suffering in the received countries. I have offered within the limits of this study a glimpse of their suffering in these countries.

Keywords: The moriscos, Spain, Suffering, Maghreb.

* - طالب دكتوراه سنة رابعة جامعة الجزائر2، البريد الالكتروني: [taibi.abdelali@yahoo.fr].

مقدمة:

يلقي هذا البحث الضوء على واحدة من أكبر المآسي التي عاشها الأندلسيون أو ما يطلق عليهم بالمورسكيين الذين بقوا بإسبانيا يخضعون لحكم الملكين الكاثوليكيين: "فرناندو وإزابيلا"، بعد سقوط غرناطة والمعاناة التي عاشوها بالمنفى خاصة ببلاد المغرب وفرنسا وأمريكا منذ سقوط غرناطة سنة (1492هـ-897م)، وحتى الطرد النهائي من شبه الجزيرة الأيبيرية على يد الملك فليبي الثالث سنة(1609م). حيث عاش المورسكيون أحداث جساما لم يكن لأحد أن يلاقيها في تلك الفترة من تاريخ البشرية، وقد توالت عليهم النكبات الواحدة تلوى الأخرى تحت حكم الإسبان المتعصبين وقهر محاكم التفتيش الذين اعتبروهم مواطنون من الدرجة الثانية، من خلال التسمية التي ترمز إلى التقليل من شأنهم باعتبارهم مسلمين صغار، فالمورسكى: تصغير لكلمة "الموروه" وتعني المسلم الصغير الصغير، وفي هذا احتقار لهم وهم الذين بنوا بلدا كان إلى فترة قليلة منارة للعلم والحضارة بكل أوربا التي كانت تعيش عصر الظلام، لينتهي بهم المطاف بالطرد إلى البلدان المجاورة كالمغرب ومصر والدولة العثمانية وفرنسا أو إلى البلاد البعيدة كأمريكا المكتشفة حديثا، حيث كابد المورسكيون هناك أيضا من الصعاب ما جعل الكثير منهم يفكر في الرجوع إلى اسبانيا والعيش هناك تحت سياستها البربرية التي اتبعتها ضدهم على مر العصور، ولأن المعاناة التي عانوا منها ببلاد المهجر تنم عن تعصب أهلها لكل ماهو مسلم فإن ذلك لا يمكن أن نسقطه على بلاد المغرب التي كانت تمثل الامتداد الطبيعي لأهل الأندلس عبر مر العصور لما في ذلك من عناصر مشتركة، ولأن ظلم أهل القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند، فإن الخذلان الذي لاقوه من إخوانهم أهل الملة والدين ببلاد المغرب وغيرها والذي لا تمحوه حوادث الأيام، كان أشد عليهم من ظلم النصارى وجورهم. ولمعالجة هذه الإشكالية اعتمدت على المنهج التاريخي الاستقصائي من خلال تتبع تنقلات هذه الجاليات الأندلسية عبر كل مراحل هجرتها.

معاناة المورسكيين قبيل التهجير:

لا أحد ينكر التنكيل الذي مورس ضد المورسكيين من طرف النصارى بعد سقوط أخر معاقل المسلمين بتلك البلاد، فقد صدم طاغية قشتالة وأرغون من بقي بنقض عهوده ونشر بمحض الغدر بنوده من غير معذرة لفقها ولا كذبة في معرض العذر

نمقها[1]، فكانت الصدمة كبرى بإرغامهم على التنصير أو القتل وفي ذلك يقول المقري:"....فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهله، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ...ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام وتوعد بالنكال والمهالك العظام، ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب لأنساكم مصرعه وساءكم مفضعه، وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلوبة، وأفواه الذاهلين محلولة، وهم يقولون ليس لأحد بالتنصير أن يمطل، ولا يلبث حينا ولا يمهل، وهم يكابدون تلك الأهوال ويطلبون لطف الله في كل حال[2]، وهذا ديدن أهل الكفر لا يحفظون العهود، فما إن صارت البلاد بيده حتى أصدر قرارا اعتبر فيه كل المورسكيين رقيقا، وبالتالي على كل من أراد العبور إلى المغرب أن يفدي نفسه[3]، لذلك لم يكن للكثير منهم خيار غير التنصير أو الهجرة، وهو الهدف الذي كان يصبو إليه حكام إسبانيا الجدد الذين خضعوا للكنيسة التي كانت تطالبهم دائما بإصدار قرارات صارمة ضد المورسكيين، والتي كانت في غالبيتها تضيق عليهم في جميع مناحي الحياة، نذكر منها على وجه الخصوص:

- منع المورسكيين من استعمال اللغة العربية واللباس العربي.
- إجبار المورسكيين على ترك أبواب المنازل مفتوحة ليسهل مراقبتهم.
- منع الزواج على الشريعة الإسلامية وإجبارهم على الزواج المسيحي.
- غلق كل الحمامات ومنع الجميع من الاستحمام.
- منع تعليم الصغار للشعائر الإسلامية وإجبارهم على حضور القداس في الكنائس.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة تنصر الكثير وقتل من امتنع وهاجرت القلة الباقية، يقول المقري:" ...وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع

[1] شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق وضبط وتعليق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939، ج1، ص69

[2] المقري، المصدر السابق، ص ص70، 71

[3] عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة 1997، ص 217.

قوم عن التنصير واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك... فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن أخرهم قتلا وسبيا"[1].

ورغم كل هذه المآسي التي مورست ضدهم والتنصير الذي فرض على الأغلبية منهم إلا أن الكنيسة كانت ترى فيهم خطرا على الأمة الاسبانية لا يزول إلا بالقضاء عليهم نهائيا، لذلك لجئوا إلى الطرد الذي كان الخيار النهائي في ظل تضارب الآراء في تحديد مصيرهم، ومن ذلك اقتراح المطران ربيرا المتعصب والذي قضى بأن يؤخذ المورسكيون رقيقا للعمل في السفن حتى يتم إفناؤهم[2]، في حين ذهب البعض الآخر إلى المبالغة في وجوب قتل الجميع دون استثناء، وفي الغالب كانت هذه الاقتراحات تجد معارضة من ملوك الإسبان، ومع مجيء الملك فليبي الثالث الذي اتسم بالضعف أمام الكنيسة أعاد المطران ربيرا طرح فكرة التخلص من المورسكيين، بنفيهم من البلاد إلى شمال إفريقية وبعض الدول المجاورة، معللا ذلك بالضرورة التي لا مفر منها حيث أصبحوا يشكلون خطرا على الأمة الإسبانية ووحدتها بسبب تكاثرهم وقلة أعداد النصارى[3]. وتنفيذا لهذه الإجراءات القاسية تعللت السلطات الإسبانية بالأسباب التالية:

- تآمر المورسكيين مع الإمبراطورية العثمانية بشمال افريقية ضد التاج الاسباني.
- تكاثرهم الديمغرافي السريع الذي وضع البلاد في اختلال يصعب التحكم فيه مستقبلا.
- أن طردهم يمثل الوحدة السياسية والدينية لها.

مُنح المورسكيون مهلة قليلة لا تتجاوز الثلاثة أيام لكي يتمكنوا من تصفية أملاكهم، وبعدها يحق للسلطات الاسبانية تفعيل الإجراءات العقابية ضدهم بالتهجير القصري أو القتل لكل من يحاول المقاومة أو الاعتراض، وما إن بدأ الترحيل حتى أُخذ الأطفال من عوائلهم من أجل تنصيرهم وهم صغار انتقاما لفشلها في تنصير آبائهم من قبل، ثم قسمت العوائل إلى مجموعات صغيرة يسهل مراقبتها والتحكم فيها بعد أن تشتت عرى القرابة بينهم.

---

[1] أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صابر، بيروت 1988، ج4، ص527.

[2] عنان، المرجع السابق، ص394

[3] عنان، المرجع السابق، ص396

معاناة المورسكيين في بلاد المغرب:

تجميع المورسكيين على الشواطئ الإسبانية من أجل ترحيلهم إلى بلاد المغرب، لتبدأ معاناة أخرى تمثلت في قيام أصحاب المراكب بالسطو على ممتلكاتهم والرمي بمن يقاوم عن نفسه في البحر، ورغم أن المورسكيين لم يتمكنوا من حمل كل أملاكهم إلا ما سُمح لهم به، إلا أن البحارة كانوا يرون أنهم يحملون الكنوز الكثيرة.

توافدت جموع كبيرة على بلاد المغرب الذي كان الوجهة المفضلة للكثير منهم منذ سقوط غرناطة وما تلاها، حيث خرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس[1]، وقد فصل لنا صاحب أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر الأماكن التي ذهب إليها الموريسكيون، فيذكر أن من بقي من المسلمين في مالقة عقب سقوط غرناطة عبروا البحر إلى باريس، وعبر أهل المرية إلى تلمسان، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وعبر أهل رُنْدة وبسطة وحصن موجر وقرية الفردوس وحصن مارتيل إلى تطوان، وعبر أهل بيرة وبرجه وأندرسن إلى ما بين طنجة وتطوان، وعبر أهل بلش إلى سلا، وخرج الكثير من أهل غرناطة إلى بجايه ووهران وقابس وصفاقص وسوسة، وخرج أهل مدينة طريف إلى آسفى وأزمور وغيرها[2]، وما كاد المورسكيون أن يهنئوا بمغادرتهم لديار الكفر ووصولهم لديار الإسلام عبر كل مراحل هجرتهم حتى لاقى الكثير منهم التنكيل والقتل والطرد في مناطق متفرقة من بلاد المغرب، وعلى عكس الفترات الأولى من الهجرة لم يعد أهل المغرب يشعرون بالثقة تجاههم بل إن البعض منهم سماهم بنصارى قشتالة لما كانوا يتصفون به في مظهرهم وسلوكهم ولغتهم، وهذا تفصيل لمعانتهم منذ بدأت هجرتهم لبلاد المغرب:

ففي سنة1512م تزايد عدد المهاجرين إلى بلاد المغرب الأوسط، ورغم أن وجودهم بمدينة الجزائر كان قليلا مقارنة بالمدن الأخرى إلا أن المشاكل حلت بهم منذ أن نزلوا بها، إذ أصابها مجاعة كبرى دفع بأهلها إلى تحميل وزرها للمورسكيين الذين كان يُنظر إليهم أنهم هم السبب فيما وقع، فتم طردهم منها في ثلاثة أيام ومن لم يغادر

[1] المقري، نفح الطيب، ج4، ص528

[2] مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر،تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبط وتعليق: ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد 2002، ص48

في هذه الفترة تم قتله ولم يسلم من ذلك حتى المرضى[1]، أما في وهران التي كانت المحطة الأولى للمهاجرين ومنها إلى باقي المدن والحواضر الأخرى، كتلمسان وفاس فقد وقع بهم من التنكيل ما لا يمكن لعاقل أن يتصوره، إذ تسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشون الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، ونجا القليل من هذه المعرة [2]

وقد كان من قدر الله أن من وصل منهم إلى فاس وجدوا المدينة وقد أصابها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والطاعون، ففر الكثير منها بسبب ذلك ورجع البعض منهم إلى الأندلس، وقد أخبروا من بقي بما رأوا فامتنع الكثير منهم عن العبور وعزموا على الإقامة والدجن[3]، ومن خلال استقراء الفتوى التي وردت في كتاب المعيار المغرب والجامع المغرب من فتاوى أهل الأندلس والمغرب والتي جاء فيها أن بعض الأندلسيون الذين هاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام وقد ساءهم الحال، قد ندموا على ذلك بعدما وجدوا الحال غير الحال وقد ضاقت عليهم الدنيا بفعل قلة الأمن والضيق في طلب المعاش، وقد أقر العديد منهم بالندم على المجيء إلى المغرب بل إن بعضهم أنكر الهجرة وطلب بان تكون الهجرة من هنا إلى هناك وليس من ها هناك إلى هنا[4]، ويقصد بها الهجرة من دار الإسلام إلى دار الكفر، وليس من دار الكفر إلى دار الإسلام، وبغض النظر عن أحقية هؤلاء وغيرهم ممن ساءت أحوالهم في هذه البلاد بما قالوا به، فإن هناك شيء أكيد في هذه الفتوى وهو أن أهل الأندلس الذين هاجروا إلى بلاد المغرب قد لاقوا من أصناف العذاب والمعاناة وقلة الأمن وضنك العيش ما دفعهم إلى القول بذلك.

ومع شيوع خيبة الآمال لدى المورسكيين من الواقع المعاش في بلاد المغرب، أقاموا على تأسيس كيانات وتجمعات عرفت لاحقا بمجموعات القراصنة التي عملت على تقوية نفوذها البحري بصناعة السفن والإغارة على السواحل الأوربية، الأمر الذي

[1] محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط 2، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1998، ص132

[2] المقري، نفح الطيب، ج4، ص528

[3] المقري، أزهار الرياض، ج1، ص68

[4] أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي،بيروت 1981، ج2، ص119

أدي بالحكومة الإسبانية إلى شن حملات تأديب ضدهم والاستيلاء على بعض الموانئ المغربية ما دفع بالمغاربة إلى اتهامهم بالتعاون مع الإسبان ضد المغرب[1].

وفي الفترة الأخيرة من هجرة المورسكيين للمغرب بعد الطرد النهائي لهم من اسبانيا تغيرت نظرة أهل المغرب لهم كليا حيث بدءوا ينظرون لهم على أنهم نصارى، وذلك بفعل التغييرات التي طرأت عليهم بداية من ملبسهم، الذي أصبح يشبه كثيرا اللباس النصراني ولغتهم التي كانت خليطا من العربية والإسبانية، وعادات اجتماعية بفعل الاختلاط الذي أصبحوا يعيشونه أثناء إقامتهم لحفلاتهم، ما حذا بالمغاربة إلى اعتبارهم نصارى وهم الذين كانوا قبل ذلك في نظر الإسبان مسلمين[2]، ولأن المورسكيين لم يكن جميعهم من المسلمين، لم يتسامح معهم أهل تطوان بالمغرب لعدم دخولهم للمساجد وإقامتهم لشعائر الإسلام وبقائهم على دينهم المسيحي، فكانت سمة الكره تجاههم بفعل اعتقادهم بالمسيحية، فصارت رغبة المهاجرين شديدة في العودة إلى إسبانيا ليموتوا مسيحيين[3].

وعبر كل مراحل الهجرة الأندلسية منذ سقوط غرناطة وحتى الطرد كان هناك تباين في الأسباب التي دفعت بهم للهجرة، فالمهاجرون الأوائل كانت ظروفهم تختلف كليا عن المهاجرين الذين جاءوا بعد الطرد، فأوائل المهاجرين كان أهل المغرب يرون فيهم مسلمين، في حين أن المهاجرين الذين جاءوا بعد الطرد اختلف حولهم الجميع بمن فيهم الأندلسيين أنفسهم، فعلى عكس الفترات السابقة لم يعد المغاربة يشعرون بالثقة تجاه المورسكيين الذين تم طردهم في المرحلة الأخيرة وصاروا يسمونهم بنصارى قشتالة[4].

وفي الأخير لا يسعني إلا أن آتي على ذكر الأعمال البشعة التي يذكرها لنا الشيخ أبي راس الناصري في مؤلفه عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، والمسمّى أيضاً

---

[1] عبد المجيد القدوري، المورسكيون في المجتمع المغربي اندماج أم انعزال ؟،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة الندوات الندوة الثانية، شفشاون 2000، ص 87

[2] محمد قشتيليو، حياة المورسكيين الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ط1، مطابع الشويخ، تطوان2001، ص24-25

[3] حنيفي هلايلي، الأندلسيون في كتابات أحمد المقري التلمساني أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجا، مجلة التراث العربي ، جامعة سيدي بلعباس1997، ص186

[4] القدوري، المرجع السابق، ص85

غريب الأخبار عمّا كان في وهران والأندلس مع الكفار، ويرويها عنه صاحب كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، من أن الأندلسيين الذين نزلوا بوهران في طريقهم إلى المناطق المجاورة كان نصيبهم من المعاناة الكثير، حيث تعرضت لهم بعض القبائل العربية ومنها قبيلة هبرة ونهبت أموالهم وبقرت بطونهم ظنا منهم أنهم يخفون المجوهرات في بطونهم[1].

وهنا يجب الإشارة إلى أن العديد من المؤرخين العرب يشككون في صحة هذه الرواية وينفون وقوع هذه الأحداث جملة وتفصيلا لأن المستشرقين يأخذون بها ويستدلون على ذلك بقسوة المعاملة التي عاشها الأندلسيون في المغرب ككل، لكن أرى أن ذلك فيه نوع من المبالغة التي لا ترقى إلى دليل، فأصل هذه الرواية جزائري وليس من مصدر خارجي أو أجنبي يمكن التشكيك فيه، وهنا نتكلم عن الفقيه العالم المؤرخ محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر بن عبد الله بن عبد الجليل الذي أورد هذه الرواية، وهو من العلماء الأجلاء الذين ليس لهم من مصلحة في ذكر هذه الأخبار التي تسيء للمسلمين أكثر مما تفيدهم، ثم إن الغزو الذي وقع بعد ذلك من بعض القبائل العربية لقبيلة هبرة وتأديبها عقابا لما فعلته بأهل الأندلس خير دليل على وقوع هذه الأحداث.

يضاف إلى ذلك أن المهاجرين الأندلسيين الذين جاءوا بعد الطرد كانت كل مظاهر حياتهم توحي بأنهم نصارى بداية من الملابس التي كانوا يرتدونها والتي كانت في غالبيتها تشبه الملابس الاسبانية، واللغة التي كانوا يتكلمون بها كانت خليط من العربية والاسبانية أو ما يعرف بالقشتالية، وحتى العادات التي كانوا يمارسونها كانت تشبه العادات النصرانية، كل هذه المظاهر جعلت من القبائل العربية لا تفرق بينهم وبين النصارى، ما جعلهم يقومون بتلك الأعمال، وعلى العموم فقد عبر المقري عن الذين حالفهم الحظ ونجوا من هذه الأحداث المؤلمة التي اعتبرها معرة بحق من فعلها ولا

[1] الشيخ أبي راس الناصري المعسكري، (1165-1238هـ/1755-1823م) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق: بوركبة محمد، رسالة دكتوراه، 1428 . 1429 هـ / 2007 . 2008م، مكتبة كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر (263/1)؛ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتعليق: المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص31، علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان2005، ص180.

تمتّ إلى الإسلام بصلة بقوله "ونجا القليل من هذه المعرة"1. لذلك أرى أن إنكار هذه الأحداث ليس فيه ما يبرره.

معاناة المورسكيين بفرنسا:

وفي فرنسا التي وصلتها أعداد لا بأس بها من المورسكيين قوبلت هجراتهم الأولى بنوع من الترحيب الممزوج بالحذر، ذلك أن المورسكيين كانوا قد اقترحوا على الملك أنريكي الرابع في أثناء حكم فليبي الثاني لإسبانيا بأن يضعوا تحت تصرفه جيشا لمحاربة الإسبان، وهو الأمر الذي استغله الفرنسيون كأوراق ضغط ضد حكام اسبانيا[2]، لكن سرعان ما تغيرت الأحوال بعد ذلك حيث حدث مع المورسكيين بفرنسا نفس الأمر الذي حدث معهم في بلاد المغرب حينما اشتد على أهلها الجفاف وشحت الأمطار وعانى الأهالي من الجفاف، فحمّلوا المورسكيين سبب ذلك وأمروا بطردهم من البلاد عقابا لهم[3]، ليدخل المورسكيون بعدها في معاناة مع القرارات الجائرة التي أصدرتها الحكومة الفرنسية بحقهم، بداية من التضييق عليهم من خلال الحد من انتقالهم إلى مدن الشمال وتحديد استقرارهم بالمناطق الجنوبية فقط لحين ترحيلهم إلى خارج البلاد، على أن أي معارضة للقرارات يعاقب صاحبها بأشنع العقوبات التي كانت شائعة في القرون الوسطى والمتمثلة في العمل بالتجديف على متن السفن التي تعمل في البلاد البعيدة، إلا أن بعض المسؤولين المحليين بالغوا في تنفيذ العقوبات التي وصلت حد القتل لكل من يرفض تنفيذ قرارات الترحيل[4].

ولا حقا وبعد أن تفشت الأمراض في أوربا تغيرت المعاملة تماما لما كان ساريا العمل به من قبل حيث منع المورسكيون من دخول الأراضي الفرنسية تماما، وحتى السفن التي وصلت إلى المراسي الجنوبية اتخذت السلطات هناك إجراءات غير آدمية ضد المرضى حيث قامت باستئجار بعض السفن ونقلت كل المصابين إلى السواحل

[1] المقري، نفح الطيب، ج4، ص528

[2] عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة ، أنترناسيونال برس، القاهرة 1983ص168، عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991، ص394

[3] رزوق، المرجع السابق، ص132

[4] أنطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد بنثنت تاريخ مسلمي الأندلس المورسكيون حياة...ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، ط1، دار الإشراق للطباعة والنشر، الدوحة قطر1988، ص272

الإفريقية، وفي طريقهم تعرضوا لكل أنواع النصب والاحتيال والسرقة والقتل ونهب أموالهم وأمتعتهم، كما كانوا فريسة سهلة للبحارة الذين كانوا يرمون بهم في البحر طعاما للأسماك التي سميت لاحقا بأسماك الغرناطي والتي أصبح الأوربيون يمتنعون عن أكلها[1].

ومن بقي من المورسكيين بفرنسا عوملوا معاملة سيئة حيث أجبر الكثير منهم على ممارسة الأعمال الشاقة التي لا يعمل بها عامة الناس من الفرنسيين، وهنا نورد رسالة لأحد المورسكيين الذي كان بمرسيليا وفر منها لشدة ما رأى من أهوال إلى الجزائر حيث يقول: "...ولأن السادة هناك يريدون استغلالنا واستخدامنا في الزراعة والمهن الدنيئة ...لذلك أتينا إلى مدينة الجزائر"[2].

على أن الأعداد الأخرى التي بقيت هناك تنافست عليها الجماعات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية لضمهم إليها، وبسبب الحاجة الماسة التي كان المورسكيون إليها من أجل إنقاذهم من الأهوال التي عايشوها وافق الكثير منهم على قبول المساعدة التي قدمت إليهم، حتى وإن كانت تتعارض مع معتقداتهم التي ثبتوا عليها طوال مكوثهم بإسبانيا مظهرين في ذلك تبعيتهم لهذه الجماعات فقط من أجل مصالح آنية إلى حين تجلي الأوضاع، وفي هذا السياق يقول لوي كارديناك: "إن تحول المورسكيين من الإسلام إلى البروتستانتية لا يعدو أن يكون حادثا عابرا في مهجرهم". ذلك أن البابا في إيطاليا عندما علم بأن أحد النساء المورسكيات اللائي رفضن النطق بالشهادة النصرانية عند موتها عمل على طرد الجميع من البلاد[3].

معاناة المورسكيين في أمريكا:

أما في أمريكا فقد كانت المعاناة مختلفة تماما عما كان ببلاد المغرب وفرنسا، حيث أن السلطات الإسبانية هي التي كانت تتابع المورسكيين هناك وتقوم على التنكيل بهم وإعادتهم إلى محاكم التفتيش ليتم الحكم عليهم من جديد بالقتل أو السجن مدى الحياة، وبالرغم من كل الاحتياطات التي وضعتها السلطات الاسبانية في حق من يحق له الهجرة إلى العالم الجديد، حيث أصدر الملك شارل الخامس مرسوما سنة 1522م يمنع بموجبه دخول منطقة الهنود (أمريكا) على كل الأشخاص حتى الذين اعتنقوا

[1] دومينغيز، المرجع السابق، ص273

[2] المرجع نفسه، ص275

[3] المرجع نفسه، ص274

الديانة المسيحية حديثا[1]، وهو يقصد بهم العرب الذين تركوا ديانتهم وتمسحوا، ذلك أن اسبانيا كانت قد اتبعت الانتقائية في تعاملها مع المجموعات الأخرى التي تخالفها العقيدة أو التي تشك في عقيدتها إلا من ثبت بالدليل أن عقيدته مسيحية أبا عن جد، ورغم كل هذا التشديد فقد استطاعت العديد من الجاليات العبور إلى العالم الجديد نتيجة:

_فساد الدوائر، التي كانت تسمح لهم بالهجرة مقابل الرشاوى التي كانت تدفع لهم، أو التنازل عن أملاكهم بإسبانيا، والتي استعمل جزءا كبير منها في بناء الأديرة[2].

_اضطرار المكتشفين الجدد للقارة لليد العاملة المورسكية خاصة بعد أن ساءت العلاقة بينهم وبين أصحاب الأرض الأصليين من الهنود.

_ اصطحاب بعض المرشدين من المسلمين المتمرسين في علوم البحار الذين تظاهروا بالنصرانية للهروب من محاكم التفتيس.

وبعد وصولهم إلى هناك بدؤوا في ممارسة بعض الشعائر الإسلامية ظنا منهم أن محاكم التفتيش لن تصل إليهم وهم في هذه البلاد، وما إن وصلت الأخبار التي تفيد بوجود بعض الجاليات المورسكية التي تعمل على إحياء تراثها المحمدي، حتى أرسل الملك شارل الخامس سنة 1599م تعليمة إلى رؤساء الأحبار بأمريكا تطالبهم التأكد من هوية المهاجرين والبحث عن أي عربي ومعاقبته وإعادته إلى السلطات بإسبانيا لتتم محاكمته من قبل محاكم التفتيش، إدراكا منهم بأنهم يعيقوا انتشار الدين المسيحي ويساعدوا على دخول الدين المحمدي[3].

ومع علم السلطات بإسبانيا بوجود أعداد كبيرة من المورسكيين هناك تم تأسيس ديوان التحقيق بأمريكا لكي تسهل عملية مطاردة المورسكيين وكل الدعاة الآخرين القائمين على نشر الديانات الأخرى، وبذلك تبدأ مرحلة أخرى من المعاناة مع هذه الدواوين التي نفذت ضدهم أحكاما دموية تمثلت في إعدام أو إحراق أو استعباد الآلاف منهم، فقد تم حرق رجل يدعى ألفارو غونزاليت من طرف محاكم التفتيش بعد

[1] لوي كارديالك، المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492-1640، تعريب: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، تونس 1983، ص 147

[2] دومينغيز، المرجع السابق، ص302

[3] كارديالك، المرجع السابق، ص 149

أن اكتشف أنه من أتباع الطائفة المحمدية وكان ذلك سنة 1560م[1]، ثم أصبحت الوشاية من طرف بعض الأشخاص الذين كلفتهم محاكم التفتيش بتتبع الوافدين والمهاجرين القدامى، ليجد المورسكيون أنفسهم من جديد في صراع مع المحاكم وهم الذين فروا من اسبانيا اتقاءا لشرها، وهي التي كانت تأخذ الناس بالشبهات لكل من يعارض منهجها حتى من المسيحيين أنفسهم، ومن ذلك ما وقع مع رئيس أساقفة غواتيمالا فرنسيسكو ماروكان الذي اتهم بأن جذوره مشكوك فيها وأن أصوله مورسكية لتتم الإطاحة به[2].

خاتمة:

لقد عاش المورسكيون أكثر من غيرهم عبر كل مراحل حياتهم المآسي والمعاناة التي تفنن المسيحيون الإسبان في تنفيذها ضدهم وهم الذين كانت كل أمانيهم بعد سقوط آخر معاقل الإسلام بشبه الجزيرة الأيبيرية البقاء في البلاد التي ولدوا فيها والتي لا يعرفون غيرها، لكن قضاء الله وقدره كان قد سبق فلاقوا من أصناف العذاب في سبيل دينهم وبلدهم وممتلكاتهم ما لا يستطيع أي بشر أن يتحمله، فقد طرق بهم من الخطب ما لم يوجد في سالف الدهر، فكان لزاما عليهم إما الرحيل إلى البلدان المجاورة أو البقاء هناك والدخول في ملة النصارى، وحتى الذين اختاروا البقاء كان السلطات تعاملهم على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثانية لشكها في عقيدتهم وانتمائهم، لذلك عملت عبر كل المراحل على استئصالهم من البلاد فكان الطرد الحل النهائي لوجودهم بإسبانيا.

ولم تنته معاناتهم بذلك الطرد بل وجدوا في البلاد التي هاجروا إليها من البؤس والفقر والمرض وسوء المعاملة ما جعل الكثير منهم يراجع كل حسابات الرحيل والعودة إلى اسبانيا، وأصبحوا بذلك بين نار البقاء والتحول إلى المسيحية والاستعباد أو الهجرة وتحمل الصعاب ومكابدة المخاطر، ولم تكن المخاطر وحدها ما كان يعانيه المورسكيين الفارين من اسبانيا، بل كانت محاكم التفتيش جزءا من هذه المعاناة خاصة في أمريكا التي كانت تسيطر عليها اسبانيا والبرتغال، وعلى العموم لم يسلم المورسكيون من المعاناة أينما حلوا وارتحلوا حتى في البلاد العربية التي كانت بالنسبة

[1] دومينغيز ، المرجع السابق، ص270

[2] كارديلك، المرجع السابق ،ص 164

للكثير منهم الامتداد الطبيعي للأندلس والحاضنة الإسلامية بفعل روابط الدين واللغة وغيرها من العوامل التي تجمع المسلمين ولا تفرقهم.

المصادر والمراجع:

-أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج: محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية ودار الغرب الإسلامي،بيروت 1981

- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صابر، بيروت 1988

- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتعليق: المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر 2013

- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق وضبط وتعليق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939

- الشيخ أبي راس الناصري المعسكري، (1165-1238هـ/1755-1823م) عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، دراسة وتحقيق: بوركبة محمد، رسالة دكتوراه، 1428 . 1429 هـ / 2007 . 2008م، مكتبة كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران

- مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر،تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب، ضبط وتعليق: ألفريد البستاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد 2002

- أنطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد بنثنت تاريخ مسلمي الأندلس المورسكيون حياة...ومأساة أقلية، ترجمة عبد العال صالح طه، ط1، دار الإشراق للطباعة والنشر، الدوحة قطر1988

- عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة ، أنتر ناسيونال برس، القاهرة 1983

- عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة 1997

- عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو المورسكيون الأندلسيون صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة 1991
- عبد المجيد القدوري، المورسكيون في المجتمع المغربي اندماج أم انعزال ؟،مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة الندوات الندوة الثانية، شفشاون 2000
- علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان2005
- لوي كارديك، المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية 1492-1640، تعريب: عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، تونس 1983
- محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط 2، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1998
- محمد قشتيليو، حياة المورسكيين الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها، ط1، مطابع الشويخ، تطوان2001
- حنيفي هلايلي، الأندلسيون في كتابات أحمد المقري التلمساني أزهار الرياض ونفح الطيب نموذجا، مجلة التراث العربي ، جامعة سيدي بلعباس1997